فضاءات ضيقة

د. عاطف البطرس

بين نجيب محفوظ وفيفي عبدو

■ مصادفة جمعت بين فيفي عبدو ونجيب محفوظ على كوبري النيل في القاهرة، عندما تعطلت سيارتها بجانب سيارة الأديب الكبير نجيب محفوظ، فاقتربت منه وسألته: أستاذ نجيب تحياتي العطرة.. هل تعرفني؟ فأجابها بكل تهذيب: لا! قالت: أنا فيفي عبدو.. وابتسمت ابتسامة عريضة قائلة وهو في سيارته الهرمة المعطلة على الكوبري لقدمها: يا أستاذ نجيب هذه (عربيتي).. تأمّل كي هي فارهة وحديثة.. لقد دفعت ثمنها حصيلة قلة أدبي، فماذا اشترى لك أدبك؟

طبعاً أنا لست فيفي عبدو، لا لأني رجل وهي امرأة فقط، ولكن لأني لا أحسن الرقص... وغني عن القول: أني لست نجيب محفوظ ولا قريباً من مكانته.

كثيراً ما يقول لي مدير تحرير الجريدة: (يا عاطف (اشتريلك حذاء جديد).. فاستجبت لطلبه بعد أن استلمت من محاسب التلفزيون أجرة ثلاث حلقات من برنامج ثقافي مدة الحلقة الواحدة ساعة.. عبرت سوق الصالحية فرحاً بالمبلغ الذي وضعته في جيبي، وقلت سأشتري جوزين من الأحذية، فأشبع حاجتي وأرضي مدير التحرير.. ولكن كم كانت خيبتي كبيرة عندما اكتشفت من واجهات المحلات أن كل ما حصلت عليه لا يشتري فردة حذاء.

نقدر ما يمر به الوطن من ويلات وما يواجه من مصاعب ونتفهم الأوليات، ولكن ألا يحق للعاملين في الحقل الثقافي أن يحصلوا على أجور تضمن لهم حياة كريمة لائقة تمكّنهم من القيام بالمهام الوطنية والثقافية الملقاة على كواهلهم.

في مقابلة تلفزيونية للشاعر والمترجم وكاتب السيناريو الراحل ممدوح عدوان، في جواب عن سؤالهم له: لماذا تطلب أجراً على كل كلمة تقولها؟ أجابهم لأنني كاتب محترف.. أعيش من إنتاجي.. فعندما أذهب إلى الحذاء يطلب مني لقاء عمله نقوداً، فهل أقدم له قصيدة؟!

لقد أصبح من غير المقبول أن تبقى مكافأة محاضرة أو استضافة في التلفزيون أو مقالة في جريدة أو مجلة ما لا يسد قيمة وجبة غذاء. المشكلة هنا ليست مادية، ومهما كان الأجر فهو لا يقابل الجهد المبذول، وحالة التوتر والتحضير والوصول إلى المراكز الثقافية أو مبنى التلفزيون أو طباعة مقالة، المشكلة معنوية ومادية، وحاجات الإنسان يجب أن تلبى وفق الظروف، فإذا كانت الحجة هي الحالة التي يمر بها الوطن والصعوبات المالية، فلماذا نجد بذخاً في أمكنة وتقتيراً شديداً في أمكنة أخرى؟!

أوليس هناك إجماع على أن المعركة في وجه منها ثقافية فكرية، فكيف يمكن للمثقف أو المفكر أو الكاتب أن ينتج أدباً أو فكراً دون أن يشعر بالإنصاف، ودون أن يحصل على ما يليق بجهده ومكانته؟

إننا نناشد أصحاب الرأي والقرار أن يعيدوا النظر في التعويضات والمكافآت بما يتناسب مع غلاء المعيشة، لتمكين العاملين في الحقل الثقافي من القيام بواجبهم الوطني الذي لا يعلو عليه واجب ولا تعادله قيمة مهما كانت مادية أو معنوية.

atef.albbo71@gmail.com

أيها المعرضون عن الكلام

■ في لحظة صدق نادرة قال مالك بن نبي: في هدأة الليل، وفي سبات الأمة الإسلامية العميق، انبعث من بلاد الأفغان صوت ينادي بفجر جديد، صوت ينادي: حيّ على الفلاح، فكان رجعه في كل مكان. إنه صوت جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) موقظ هذه الأمة إلى نهضة حضارية جديدة، ويوم فلاح جديد. فما الذي أراده جمال الدين الأفغاني في مشروعه الفكري السياسي؟ كان الحامل المهم في مشروعه هو الجرأة في الاقتحام عبر صوت صارخ في البرية تردد صداه في هذا الرجع البعيد الذي نشهد انبثاق فجره اليوم. وحين اقتربت من شخصية جمال الدين الأفغاني الفذّة، ذُهلتُ من علوّ صوت هذه الشخصية وجرأته في وجه استبداد الحُكّام في ذلك الزمان،وأدركت أن في صوته مشكاة النبوة، لأنه لا يخاف في الحق لومة لائم. فقد كان في حضرة قيصر روسيا في أحد الأيام، فسأله عن سبب خلافه مع شاه إيران ناصر الدين، فقال: (إنه الحكومة الدستورية المنتخبة من الشعب حيث أدعو إليها، ولا يراها الشاه). فقال القيصر: (الحق مع الشاه، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحون أجلاف هم أقنان في مملكته؟). فرد الأفغاني قائلاً: (أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للحاكم أن تكون ملايين رعيته أصدقاء له من أن يكونوا أعداء يتحينون له الفرص). لم يعجب هذا الكلام القيصر ونهض من مجلسه علامة الإذن للأفغاني بالانصراف.وحين كان جمال الدين الأفغاني في ميونخ سعى بعض الساسة من الألمان لرأب الصدع بين جمال الدين الأفغاني وشاه إيران ناصر الدين، فحضر هذا الأخير إلى ميونخ وأقنع الأفغاني بالعودة معه إلى إيران لترؤس الحكومة.

(٢)

كانت أهداف الأفغاني وتطلعاته فوق ما يقبل به حاكم طاغية مستبد، وقال مخاطباً جمال الدين الأفغاني: (يا سيدنا، إنك قد أتيت أهلاً، ونزلت سهلاً، فقل الآن ما تريد، وما تطلب مني أن أفعله) فرد جمال الدين: (أريد شيئين، أذناً مصغية تسمع ما أقول، وإرادة قوية تأمر بإجراء ما سمعته). ذُعر الشاه من فكرة الحكم الدستوري فقال له جمال الدين: (إن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هو الآن، فاسمح لإخلاصي أن أؤديه صريحاً شجاعاً قبل فوات الأوان). لكن الشاه تهيب من جرأة الأفغاني وشرع يضع أمامه العراقيل، فبدأ جمال الدين الأفغاني بنقد الشاه علناً، وقال في حضرته: (إن الفلاح والفاعل والصانع والحرفي في المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن أمرائك، لاشك في ذلك، ولا بد أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت العيش دون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت يا عظمة الشاه ملكاً بلا أمة ورعية؟).

وفي آذار سنة ١٨٩١ اتفق رأي البلاط الإيراني على طرد جمال الدين الأفغاني من البلاد، وقد نفّذ هذا الأمر بصورة فظة بالغت الحد في قسوتها ومهانتها، فقد اقتحمت قوة من خمسمئة جندي الدار التي ينزل بها جمال الدين، وألقوا عمامته أرضاً، واقتادوه في شتاء قارس بلغ ارتفاع الثلج فيه إلى الركبتين، وكان الرجل مريضاً يعاني سكرات نوبات الحمى التي تحدث عنا المتنبي في إحدى قصائده.وفي طريق نفيه إلى العراق كانوا يغيرون حراسه في كل منزلة من منازل الطريق حتى لا يتعاطف الحراس مع هذا الرجل العظيم الذي أركبه الطغاة حماراً، وكلما اشتد البرد طرقوا منزلاً بالطريق، ونادوا أهله: (افتحوا الباب فنحن جنود مكلفون بسوق أحد المجرمين) وحين وصل بعد ذلك إلى الآستانة استرجع لمريده وأصدقائه هذه الصورة القاتمة قائلاً: (أيها السادة لقد كنت أنا ذلك المجرم. وعجبت من نفسي القاسية أنها لم تمت بهذه الشدة ونجت من الهلاك).

(٣)

كان خبر طرد جمال الدين من إيران قد وصل إلى العراق. وفي بغداد استقبلته السلطات العثمانية، ونفذت أوامر الآستانة بنقله من بغداد إلى البصرة لترحيله عبر البحر إلى مكان آخر. وفي البصرة التقى بأحد المنفيين الإيرانيين وحَمله رسالته الشهيرة التي طبعها في لندن فيما بعد تحت عنوان (حجة الله البالغة وحملة القرآن) وقد وصلت الرسالة إلى عالم الشيعة الحاج محمد حسن المجتهد الشيرازي، وقد فضحت الرسالة سياسة الشاه الضارة بمصالح المسلمين، فكان لها أبلغ الأثر في مقاومة سياسة الاستبداد والعنجهية التي فرضها الشاه على الشعب.وقد ثارت العامة وأحاطت بقصر ملك الملوك ناصر الدين وأرادت قتله. ولم تهدأ ثائرتهم إلا حين ألغى الشاه امتياز الشركة البريطانية التي كانت تحتكر صناعة التنباك وتتحكم في العباد.فبعد قراءة الرسالة أصدر المجتهد الشيرازي فتواه الشهيرة بتحريم تدخين النرجيلة. وفي صباح أحد الأيام طلب الشاه نرجيلة فأخبره الخدم بأن المجتهد قد حرم تدخين التنباك ولا وجود له في القصر.ثم كسدت صناعة الشركة البريطانية وألغي الامتياز ودفع الشاه التعويض.

(٤)

غادر جمال الدين الأفغاني العراق قبل أن تصدر الأستانة أمرها بمنعه من السفر.وبعد مدة من إقامته في لندن جاءته دعوة من السلطان عبد الحميد كي يحضر إلى الآستانة ويعاون السلطان في العمل على نشر التضامن الإسلامي بين شعوب الشرق قاطبة.فسافر جمال الدين الأفغاني إلى الآستانة سنة ١٨٩٢.وفي أحد الأيام أستقبله السلطان وقال له: (إن سفير إيران قصدني ثلاث مرات فحجبته في المرتين الأوليين، ثم آذنت له فطلب مني أن آمرك بالكف عن نقد الشاهنشاه والتعرض له بسوء، فانا الآن أطلب منك الإعراض عنه). فقال جمال الدين الأفغاني:

(امتثالاً لأمر خليفة العصر قد عفوت عن شاه إيران). فعلّق السلطان عبد الحميد وهو يداري غيظه وخوفه: (يحق أن يخاف منك ملك الملوك خوفاً عظيماً). وحضر ذات يوم مجلس السلطان عبد الحميد، فلاحظت الحاشية أن جمال الدين الأفغاني كان يلعب بحبات مسبحته فتُحدث صوتاً، فلما خرج لفتوا انتباهه إلى أن أدب اللقاء يتنافى مع هذا التصرف.فسخر منهم وعلق قائلاً: (سبحان الله إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الرعية على هواه وليس من يعترض منهم. أفلا يكون لجمال الدين الحق أن يلعب في مسبحته كيف يشاء؟). وتناثرت من فمه كلمات النقد القاسية في حق السلطان عبد الحميد وحرض على خلعه وخلع ملك الملوك الإيراني وقال: (إن خلعهما أهون من خلع النعلين).

عبد الرزاق دحنون

جمال الدين الأفغاني

أطلس أسمائكِ الحسنى في نصف الكأس

■ أقام ملتقى نصف الكأس الثقافي أمسية شعرية طربية كرّم فيها الإعلامي والمسرحي والشاعر سامر محمد إسماعيل، والإعلامي الشاعر الأستاذ منهل غضبان، والشابة متعددة المواهب ريتا جعلوك.

وشهد الحفل حضوراً نوعياً، إذ شارك فيه معظم مديري الملتقيات الثقافية الدمشقية الأهلية، إضافة إلى شخصيات اعتبارية وفنية.

ألقى الشاعر سامر إسماعيل للمرّة الأولى نصوصاً من ديوانه الجديد (أطلس أسمائك الحُسنى)، أعقب ذلك مداخلات ومطالعات نقدية استَعرضت بعض أبرز مزايا الديوان، ومنها ماقدمه الشاعر والمسرحي محمد خير داغستاني الذي رأى أن الشاعر لم يكن يخبرنا عبر نصوصه عن قناعاته، بل كان يتساءل معنا حول العديد من القضايا الاجتماعية والإنسانية، وقد جَاءت سنابل الأسئلة ثقيلة حانية وتحت ظلالها الثقيلة نمت الأجوبة المرّة.. وهنا تبدّت الحقائق التي احترق الشاعر سامر بها ومنها.. يقول الشاعر:

(صوّب جيداً ياغبي.. هنا تماماً.. أطلق باتجاه قلبه الساخن.. أطلق على أخٍ لم تعرفهُ كما ينبغي.. أطلق وليقولوا: مات البارحة بنَيرانٍ شقيقة.)

يتناسب ذلك مع الكدمات الكثيرة المتلاحقة والمنتشرة في الوجوه والأزقة وعلى جدران الأرواح والأعمار الكدمات المميزة لأطلس الأسماء المكياجية للبلاد (أطلس الأسماء الحسنى).. يقول سامر إسماعيل في أحد نصوصهِ:

(بيتي قبالة فرن (السعادة) ويقف عليه السعداء في حي التضامن جانب حديقة الوحدة، درستُ في ثانوية المحبة في حي التقدم وتخرجتُ من جامعة الوفاء)

أما الأديب والناقد سامر منصور فقد رأى فيما قدمه الشاعر سامر محمد إسماعيل تجلياً لمفهوم النص الرحلة، بمعنى أن الشاعر يأخذ المستمع في رحلة ضمن فضاءات الواقع والخيال، وحتى ضمن عوالمه الداخلية النفسية ليبثهُ همومه وهواجسهُ عسى أن يشاركهُ الرؤيا والشعور. وأردف منصور قائلاً:

(لقد تصدّعت جُدران المكان الذي نحن فيه لينساب عبرها ذلك الدفق المشهدي ولنطفو على بحر من التأملات إلى مستوى أعلى من الرؤيا لواقع يغصُّ بالتناقضات حتى يتشظى إنسانهُ، ورغم أن الشاعر سامر إسماعيلَ هدم جدران الزمان والمكان وحملنا إلى أزمنة وأماكن عديدة إلا أنه حافظ على الوحدة الفكرية لقصيدته، فكان شاعراً متمكناً يعرف من أين ينطلق وإلى ماذا يريد أن يصل مهما اتسَع فضاء نصه الشعري على الصعيدين الدلالي والمشهدي.. وبقي يعود إلى المرأة بعد أن تتعبهُ مصارعة علامات الاستفهام الحادة كالخطاطيف، لتعود المرأة فتشحنهُ بأسئلة من نوع آخر وربما ليس بآخر.. إنه الرجل العربي يراوح بهواجسه وتطلّعاته بينَ ذاته الإنسانية والمرأة والمدينة إنه ثالوثٌ وظف جيداً في ديوانهِ (أطلسُ أسمائك الحُسنى)..

كثيرةٌ هي الصور والانزياحات والمجازات الفريدة التي غذت مشهدية تلك الرحلة الفكرية والزمكانية في العوالم الداخلية لذاتهِ الإنسانية التي ذهبنا عميقاً فيها بين ضفتي ديوانه ومما شدَّ انتباهي العباراتِ الحداثوية المدهشة ومنها:

(واصلتُ تدريب الأحصنة على المواء) - (تطعنني سيارةٌ مفخخة) -(وفتحت ألبوم فراشاتها الميتة) - (تكادُ الأرضُ تقف عن المولاوية حولك).

ثم قدم العازفون الملحن الأستاذ محمد قصاب، فقرة من الطرب الأصيل. وألقى الشاعر منهل غضبان نصوصاً سلسة عذبة وجزلة في آنٍ معاً تمحورت حول معانٍ إنسانية سامية لم يطرحها بشكل مباشر، ولكن عبر تدفق شيق للغة الجزلة والتعابير المؤثرة والإيقاعات المؤسيقية للغة وإلقائه الصادق المُعبر عن روحه النبيلة.

وتضمن الحفَل مشاركات شعرية للأساتذة الشعراء:

لؤي عبادي - مليكة محمد -أحمد كنعان -محمد خير داغستاني.

أم الممثلة الشابة دلال عمران فقد قدمت بحثاً مميزاً حول المتاجرة بجسد الأنثى بمعنى استخدام الصور الفاضحة للتسويق للعديد من السلع التجارية والفنية، ونددت بهذه الظاهرة.

قصي ممدوح عبدو

«بروميثيوس» لأندريه جيد: أول الرجال الأحرار

■ أحب الشعراء جميعاً شخصية بروميثيوس. أحبوا بروميثيوس وراحوا يكتبون له وعنه القصائد والأغاني والمسرحيات، كما أن رسامين كثر أبدعوا في رسم لوحات تصوره على مختلف وجوهه. ونعرف أن (حامل النار) هذا وملهم الشعراء، كان في الآونة الأخيرة موضوع كتابين صدرا في مصر قبل سنوات ضمن إطار الاحتفال بذكرى لويس عوض الذي كان واحداً من كبار المهتمين العرب ببروميثيوس، مترجمين عن الإنكليزية (منشورات المجلس القومي للثقافة) ضمّا تلخيصاً وشرحاً وربطاً للعديد من النصوص والكتابات القديمة والحديثة التي تناولت هذه الشخصية الآتية، أصلاً من عالم الأساطير اليونانية. والحال أن القرن العشرين في العالم الثقافي كله لم يشذ عن هذا الاهتمام إذ نجد العديد من كتّابه المسرحيين وشعرائه يخصّون بروميثيوس بنصوص أهم ما في معظمها أنها حررت الشخصية من عبء الماضي الذي كان يكبله ضمن أطر وأفكار تقليدية، لتعطيه جزءاً من حرية لا تتناسب معه بالنسبة إلى البعد التاريخي فقط، بل تتناسب مع ما كان يجب أن تكون عليه صورة بروميثيوس منذ القدم، أي، في كلمات أخرى، أن القرن العشرين – زمن الهزائم الكبيرة والأحلام التحررية المجهضة والانتصارات الملتبسة، زمن النار وانفلات الأدب، وزمن البحث المضني عن حرية لا تعرف كيف تجيء، وعن زوال لماض لا يعرف كيف يمضي –، ما كان يمكنه أن يرضى لبروميثيوس بصورته القديمة. ومن هنا عُصرن (الرجل) و(أنسن) ليصير جزءاً من ثقافة المشاكسة والتمرد وحقوق الإنسان بصورة عامة. وفي هذا الإطار قد يكون من المفيد أن نذكر هنا واحداً من أهم النصوص التي كتبت عن بروميثيوس في القرن العشرين من منطلق ذهنية هذا القرن نفسها. ونعني بهذا، النص الذي كتبه الفرنسي أندريه جيد ونشره عام ١٨٩٩، كي يفتتح به ثقافة القرن العشرين وحداثته.

عَنْون أندريه جيد نصه هذا بـ (بروميثيوس إذ أسيء تقييده)، وهو في عرف النقاد ودارسي أعمال هذا الكاتب الكبير، كتب خلال الحقبة التي يقال عنها دائماً إنها كانت مناسبة تماماً لكتابة جيد أعماله الدراسية، وليس أعماله الإبداعية الخاصة. أي المرحلة التي شهدت ظهور كتب مثل (بيت شيبا)، (فيلوكنيت) و(إلحاح) وهي من بين أعمال جيد المبكرة الكبرى. بل أن ثمة بين النقاد من يقول إن (بروميثيوس) جيد، هذا يعتبر من أنضج أعماله على الإطلاق، وعلى الأقل خلال النصف الأول من حياته ومساره الإبداعي. ويقول النقاد إن أهمية هذا العمل التي تلوح منذ النظرة الأولى، تكمن في أن جيد أوضح لنا منذ البداية أنه نقل البطل الأسطوري الإغريقي إلى عصرنا الحديث. وهكذا منذ الصفحة الأولى للنص نكتشف بروميثيوس المعاصر لنا، جالساً إلى طاولة في مقهى وهو يستمع إلى ما يحكيه له شخصان هما كوكليس وداموكليس، علماً بأن ما يحكيه هذا يبدو غريباً في غاية الغرابة كما سنرى.

منذ الحوارات الأولى ندرك أن هذين الشخصين إنما هما تابع وضحية رجل ثري وغامض لا يفوت خادم المقهى أن يؤكد لنا أنه يعرفه. وما هذا الشخص سوى صاحب مصرف يدعى زيوس، نكتشف أن من بين هواياته القيام بتصرفات غريبة ومجانية. وانطلاقاً من هذا التمهيد سرعان ما ستولد أمام أعيننا سلسلة من الأحداث المتتالية التي إن كانت تبدو لنا غير متوقعة بعض الشيء، سرعان ما تبدو – أيضاً – متسمة بالمنطق، وهي كلها أحداث لها علاقة بالثلاثة الجالسين إلى الطاولة: بروميثيوس وداموكليس وكوكليس. وذات لحظة يبدو بروميثيوس وكأنه عازم على إرهاب بقية الحضور إذ نراه يستدعي نسره الذي يأتي وسط خوف الآخرين وفضولهم ليبدأ من فوره في قضم كبد بروميثيوس والتهامه. ونحن، معشر القراء، ندرك من فورنا أن هذا النسر إنما يرمز في حقيقة أمره إلى ضمير بروميثيوس. فهو يغذيه ويتمتع بمشاهدة مسراته، من دون أن يدرك في الوقت نفسه أنه إذ يجعله دائماً وسيماً أكثر وأكثر، إنما يغنيه أيضاً ويهلكه بالتدريج. بل أكثر من هذا، يعتقد بروميثيوس بأنه ناجح تماماً في النظرة التي دفع الآخرين إلى إلقائها على النسر، ومن هنا يقرر مواصلة مشواره المعرفي ومشوار الوعي لديه، جاعلاً من نفسه ناطقاً باسم هذا النوع الجديد من التصرف المنطلق من العقل. ولاحقاً إذ يدعى بروميثيوس إلى إلقاء محاضرة حول نوازعه الجديدة، يؤكد في محاضرته ضرورة أن يكون لكل إنسان في هذا الوجود نسره. نسر يغذيه من ضروب ندمه ويكون قادراً حتى على أن يضحي بحياته من أجله.

إذاً، نلاحظ في هذا السياق، مع دارسي هذا العمل الذي كتبه جيد وهو في الثلاثين من عمره، أن شخصية بروميثيوس لم تعد لديه شخصية ذلك البطل الذي لفرط حبه للإنسان وإيمانه بانطلاقة هذا الإنسان عمد إلى سرقة النار الإلهية للحفاظ على لهيبها مستقلاً، بل صار له همّ في هذا الزمن يتجاوز إلى حد كبير غاية الكرامة الإنسانية. إنه الآن لم يعد محباً للإنسان، بل لمن يلتهم الإنسان. وبعد أن تتضح لنا هذه الصورة عن (بطل) أندريه جيد هذا، نجدنا أمام حوار شديد الغرابة يدور بين بروميثيوس والمصرفي زيوس. ثم بعد ذلك يحدث أن يموت داموكليس بطريقة مأسوية إذ يأخذ على محمل الجدية الكلية ما كان قد قاله له بروميثيوس بصدد النسر وتغذيته. وهنا، وكما كان وعد قبل ذلك، يلقي بروميثيوس خطاباً تأبينياً بمناسبة مشاركته في جنازة صديقه الراحل. وهو خطاب يقول فيه، بعد أن يلحظ أمام الآخرين أنه بات أكثر صحة وسعادة من أي وقت كان، يقول إنه سيروي لهم حكاية مهمة. ثم بالفعل ينطلق في رواية قصة تبدو من الغرابة والطرافة إذ تثير ضحك الحاضرين وقد نسوا كما يبدو أنهم هنا لدفن إنسان وتأبينه. وهنا حين يسأل الحضور بروميثيوس عما حلّ بنسره وأين هو الآن؟ يجيبهم بكل بساطة أنه قد قتله. ثم يدعو كوكليس جليس طاولته الآخر، كما يدعو خادم المقهى إلى مشاركته تذوق لحم النسر الذي بات الآن قيد الالتهام.

وعلى هذا تنتهي الحكاية. وواضح هنا إننا أمام حكاية فلسفية لا أمام رواية أدبية. واضح أن أندريه جيد إنما أراد أن يسخر من كل أولئك الذين إذ يرغبون في أن يعيشوا حياة تتمسك، بكل صرامة، بالمبادئ والقواعد التي توافق المجتمع على أنها القواعد الأخلاقية اللازمة، ينتهي الأمر بأن يُثقلوا ضميرهم بكل ضروب الندم والحسرة، ما يجعلهم تاركين حياتهم كلها إذ تصبح حياة ميتة لا حيوية ولا إنسانية حقيقية فيها. ومن المؤكد أن أندريه جيد، يقدم لنا في هذه الحكاية – الأمثولة، ما يبدو أقرب إلى أن يكون فهماً فلسفياً للحياة الممتعة. ومع هذا علينا أن نلاحظ أن أندريه جيد لا يصل في آخر روايته إلى نكران أن النسر قد يكون ذا فائدة حقيقية في نهاية الأمر. في رأي جيد، من الصواب أن نعطي النسر ما يطالب به من (جسد) الإنسان، ولكن في المقابل، على هذا الإنسان أن يكون من القوة بحيث يعرف كيف ومتى يتوجب عليه أن يقتل النسر حتى يأكله بدلاً من جعل نفسه هو فريسة للنسر.

وكل هذا يضعنا طبعاً أمام مبدأ كان – وبقي حتى النهاية – عزيزاً على فؤاد أندريه جيد (١٨٦٩ – ١٩٥١) وهو مبدأ بسيط جداً ينادي بضرورة انعتاق الإنسان من كل القواعد التي تنحو إلى تكبيله. ومن أجل الوصول إلى هذه النتيجة، استعار جيد كما رأينا، أسطورة بروميثيوس، ويحولها إلى أمثولة فلسفية أخلاقية من النمط الذي كان ذا فاعلية ورواج في القرن الثامن عشر. والحقيقة أن هذه الأمثولة نفسها نجدها في جوهرها ماثلة في كل أعمال جيد الكبيرة بما فيها (أقبية الفاتيكان) و(مزوّرو النقود) وحتى في النصوص التي كتبها عن رحلاته إلى الكونغو والتشاد والجزائر ومصر.

إبراهيم العريس

عن (الحياة)

لعلك الشعر وأكثر

■ وهكذا تصبحين سرير الغمام.. لكل من يود الانعتاق من الحياة إلى شرفة من الندى.. بليلة رطبة وادعة في ذلك الممر الوحيد إلى لحظة راحة وسعادة، تشعر الروح من خلالها أنها خارج إطار ذلك القيد الدنيوي الذي يعبث بمكنونها البهي كما تعبث الريح بالورق المتهالك على أغصان الشجر اليابسة!

إنه يباس الأحزان المتراكمة فينا خلال سني القحط التي تعبر بنا إلى كهوف الليل والوحشة والآه، لذا بدأت العيون لا تعي ما تراه، والمشاعر لا تعي ما تعيشه، والحناجر تغص بما لا يطاق!! وثمة رعشة من الأمل تكمن في الخيال البعيد النائي الذي يتوق إليك توق الهجير الحارق لقطرة من الماء عابرة تبل ريقه وتبعث فيه نشوة الحياة في لحظة الموت المحتم، ويجعلك مفتاح صباباته إلى ذلك الركن القصي من الروح، يبثك على أنين وجعه الحزين، ما تبقى من لهاث الناي في الريح تماماً، كالذي تبثه ثرثرات القصيدة في عشاقها الموجعين على سياجات الحنين والتذكر والانتظار!

آه منك أيتها اللذيذة المريبة القاتلة، وأنت البعيدة عن العين، ولكنك تذبحيننا بتلويحة شالك القادمة من هواجس الزعتر والزيزفون والبرتقال، وأنت النائية في البال، تقتلينا بهمسك الموجع كهديل حمام الأقصى وبحة أجراس كنيسة القيامة، وهي تصرخ بدوي نزف جراحها الهادر: يا غرباء المنفى المجاور، ويا ربع الخيام القريبة منا والملاصقة لقلوبنا.. هنا كل يجاور الآخر بمغناه وتذكاراته، والشالات الملوحة فيما بيننا على الدوام، على امتداد أسلاك الهدنة، والسياجات التي قاربتنا التصاقاً بنا حد الولع الآثم، وهي تشاركنا مراثي النكبة ومغناة العودة، تشاركنا سمرنا المتداول بيننا في جمر المواقد الملوعة علينا أكثر من تلوع طينها على حر جمره الكاوي، وتعيش من خلالنا على وقع المواويل التي يستذكر الوطن بكينونته الآسرة من ضفاف اليرموك حتى ذاك الثرى المسافر بين الجليل وعسقلان وجبل النار! لكنكم أيها العابرون الموت بقطارت اللاعودة إلى منافيكم الجديدة وخيامكم المهورة باللارجوع الموصودة على نسيم فلسطين يغلقون الأبواب والنوافذ في وجهه ببصمة آثمة، مريبة، فكيف لكم بعد ذلك أن تتحرروا من لوثة البصمة ووجعها، ستحملونه ذكرى مريرة تلازمكم في عواصم شتاتكم الجديدة إلى مالا نهاية!

حالنا اليوم حال لا شبيه لها في الزمان، وهمومنا لا تحصى، وما سيذكره التاريخ عن هذه المرحلة الراهنة سيحمل من الغرابة والمستحيل ما يجعله في مصاف المرويات الأسطورية، ونظل في أعماقنا بالأمل وأرف الظلال، نؤمن بأن الوطن مر عليه الكثير فنهض وتعافى، والأمة مرّ عليها الكثير، فنهضت وتعافت، ضمن أجيال آمنت بالنهوض والتعافي.. صامدة رغم المحن والمكابدات فوق ثراها الذي صمد بعنفوان عبر الزمان، فهل لنا أن نكون كما الأوائل في لحظة الوعي أو المكاشفة؟

محمود حامد